من شواهد الإعجاز البياني في القرآن الكريم

بقلم
الأستاذ الدكتور/ عبد الله حسين على سليمان
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد...

فإن القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، أنزله الله على رسوله الأمين بلسان عربى مبين، أعجز العرب بيانه، وأفحمهم دليل صدقه وبرهانه، وحيرتهم حلاوة منطقه وسحر أسلوبه وفيض معانيه، واستولى على قلوبهم وعقولهم بلفظه ومعناه وأسرار فصاحته وسمو بلاغته وروعة أدائه وجمال تعبيره وبراعة تصويره وقوة تأثيره ودقة صوغه وسرعة نفاذه إلى أعماق القلوب وقرارة النفوس.

جاء القرآن الكريم على هذا النظام الفريد فتضاءلت دونه الأفهام وحارت العقول وزاغت العيون وخفقت القلوب وتضاربت الأفكار واضطربت الآراء واختلفت الأقوال لكن محمدا عليه الصلاة وأزكى السلام تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا فى شك من أمره فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله إن كانوا صادقين فى شكوكهم وادعاءاتهم لكنهم عجزوا عجزا بالغا وضلوا ضلالا مبينا.

ومن الثابت المحقق أن العرب إنما أعجبوا بالقرآن واستولت عليهم الحيرة واستبد بهم الدهش لسمو بلاغته وإعجاز بيانه وروعة أدائه وإحكام صياغته ودقة نظمه وروحانيته الصافية وشفافيته

العجيبة وآفاقة الممتدة وأعماقه البعيدة ومداه الذى لايتناهى ولا يحيط بأسراره سوى قائله تبارك وتعالى.

ومثل هذه الخصائص والسمات المميزة للقرآن الكريم يستحيل أن تتهيأ لبشر، أو يمكن منها احتشاد إنس وجن لها وصدق الله العظيم ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾

وللقرآن الكريم ـ مع ذلك كله ـ هزة تعترى النفوس، وخشوع يأخذ بمجامع القلوب، وجلال يهيمن على الأرواح، وطمأنينة تسرى فى الكيان ومهابة تقشعر منها الأبدان وصدق الله العظيم ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾

ومن عجيب إعجاز القرآن أنك تحسب ألفاظه هى التى تنقاد لمعانيه فإذا تعمقت فيه انتهيت إلى أن معانيه منقادة لألفاظه ومثل هذا التمازج بين الألفاظ ومعانيها أو بين المعانى وألفاظها لا يعرف مثله إلا فى الصفات الروحية العالية إذ تتجاذب روحان قد ألفت بينهما حكمة الله فصارا كالشىء الواحد بحيث لايجرى حكم فى هذا التجاذب على أحدهما حتى يشملهما جميعا.

وأصدق وصف للآية القرآنية فى إطار النظم القرآنى للآيات أن الآية القرآنية بناء متكامل يأخذ بعضه بحجز بعض ولا يمكن أن يؤخر ما قدم أو يقدم ما أخر أو يذكر ماحذف أو يحذف ماذكر أو يوجز فيما أطيل فيه أو يطنب فيما أوجز فيه لكل مقام كلام ولكل كلمة مع صاحبتها موقف وزمام وكأنما لم يخلق الله لأداء تلك

الدلالات غير هذه القوالب على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها.

حقا إن القرآن الكريم يسمو ببيانه، ويعلو ببلاغته، ويبهر بجلاله وروعته، وعظمة أسلوبه، وفيض معانيه، ودقة أدائه، وقوة تعبيره، وبراعة تصويره، وعمق تأثيره.

ومن شواهد سمو بيانه وعلو بلاغته تخير حروفه وكلماته على أساس دقيق غاية الدقة يراعى فيه استقامة المعنى وقوة الأداء ودقة التعبير وخفة النطق وكمال التصوير.

فالحرف فى القرآن الكريم مستقيم فى وضعه من الكلمة، مرتبط بصورته الصوتية مع مايؤديه من المعانى، سليم من التنافر مع غيره من حروف الكلمة، برىء من العيوب التى يمكن أن تخِلّ بفصاحة الكلمة.

يقول ابن جنىّ (١) فى قوله تعالى: ﴿إنّا أرسلنا لشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّا﴾ (٢) أى تزعجهم وتقلقهم وهذا فى معنى «تهزهم هزّا» والهمزة أخت «الهاء» إلا أن «الهمزة» أقوى من «الهاء» فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أقوى فى النفوس من «الهز» لأنك تهز مالا بال له كالجذع وساق الشجرة.

وهذا يؤكد حقيقة من الحقائق المقررة فى فقه اللغة وعلوم العربية من أن هناك نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما

١- الخصائص حـ٢ ص١٤٦، ١٥٧، ١٥٨

٢- سورة مريم الآية (٨٣)

تؤديه من معنى، فإنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها.

تأمل قوله تعالى في وصف الجنتين «فيهما عينان نضّاختان»(١) فحرف الخاء يصور بغلظة وصوت جرسه قوة الماء وكثرته إذ «النضخ» أقوى من «النضح» فقد جعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء ـ لغلظها ـ لما هو أقوى قياس المسموع من الأصوات على محسوس الأحداث.

وتأمل قول الحق تبارك وتعالى في شأن النار «إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور، تكاد تميّز من الغيظ» (٢) «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تَغَيُّظاً وزَفِيرا» (٣) «فأنذرتكم نارا تلَظَّى»(٤)

فالشين والهاء في «شهيقا» والظاء في «الغيظ» و «تغيظا» و «تلظى» تشعر السامع بحدة النار وقوتها وغضبتها وثورتها وهياجها سخطا على أولئك الكافرين الذين أضلهم الله وأعمى أبصارهم.

وقد يكون في زيادة الحروف زيادة المعنى وقوته في كلمة عن كلمة أخرى لاتتحقق فيها هذه الزيادة نلمس ذلك في قوله تعالى: ﴿فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر» (٥) إذ «اقتدر» أبلغ من «قدر» و «المقتدر» أبلغ من «القادر» لقوة المعنى وزيادة تمكنه في النفس.

١- سورة الرحمن الآية (٦٦)
٢- سورة الملك الآية (٧)
٣- سورة الفرقان الآية (١٢)
٤- سورة الليل الآية (١٤)
٥- سورة القمر الآية (٤٢)

ومثله قوله تعالى: ﴿فكُبْكِبُوا فيها هم والغاوون﴾ (١) بلاغة التعبير ب «كبكبوا» عن «كُبُّوا» للدلالة على التدافع بقوة وغلظة فى النار.

ويقال مثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ (٢)

أى من تتكرر توبتهم وعودتهم إلى الله ويكثر تطهرهم.

وقد يحذف الحرف مراعاة للخفة والسهولة وقد ورد ذلك فى قوله تعالى: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نَقْبا﴾(٣) جاء بـ «اسطاعوا» بحذف التاء لكونها متعلقة بـ «أَنْ»والفعل والفاعل والمفعول فى «أن يظهروه» فناسب ذلك التخفيف فى الفعل «اسطاعوا» أما «استطاعوا» فقد تعدى إلى اسم بعده فحسب وهو «نقبا» فلم يحتج إلى تخفيف.

وأورد صاحب «البرهان»(٤) قوله تعالى: ﴿لئن بسطتَ إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين﴾ (٥) إشارة إلى أنه قد يفصل بين الحروف المتوالية المتقاربة فى المخارج ابتغاء الخفة والسلاسة وتجنبا للتعثر والثقل فقد جاء التعبير فى صدر الآية بـ «بسطت» متبوعا بالمعدّى إليه بحرف الجر على غير المعهود من تقديم المقدّر إليه الفعل بنفسه وذلك بقصد الفصل بين حروف متقاربة المخارج تحقيقا للخفة وسهولة النطق،

١-سورة الشعراء الآية (٩٤) ٢- سورة النساء الآية (١٦٤)

٣- سورة الكهف الآية (٩٧)

٤- البرهان فى علوم القرآن للزركشى حـ٣ ص ٣٧٩

٥- سورة المائدة الآية (٢٨)

وهذه الحروف هى: الطاء والتاء من «بسطت» والياء من «يدك» لو جاء بها مقدمة، ولما أمن هذا المحذور فى عجز الآية جاء الكلام على ترتيبه المعهود من تقديم المفعول «المعدّى» إليه الفعل بنفسه على المفعول الذى تعدّى اليه بحرف الجر «ما أنا بباسط يدى إليك»

وكذلك الشأن فى حروف «المعانى» فإن لها أسرارا عجابا فى كتاب الله المبين، وهى تأتى دقيقة غاية الدقة فى مواضعها مؤدية معانيها أكمل أداء مستوفية غايتها أتم استيفاء.

تأمل قوله تعالى فى سورة «المؤمنون» ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضْغَةَ عظاما فكسونا العِظامَ لحما ثم أنشأناه خَلْقا آخر فتبارك اللّهُ أحسن الخَالقين﴾ (١)

هذه الآيات الكريمة ترسم بصورة علمية دقيقة مراحل التطور التى يمر بها الجنين خلال مرحلة التخليق منذ أن كانت البداية سلالة من طين إلى أن كان نطفة فى قرار مكين ولكى تنتقل النطفة إلى أول شكل العَلَقة يستغرق ذلك أربعة أيام وهو وقت طويل بالمقارنة بانتقال العَلَقة إلى أول شكل المضغة ثم تتحول المضغة إلى أول شكل العظام بصورة أسرع نسبيا لتأتى مرحلة كساء العظام باللحم وتتم بسرعة لتنتهى مرحلة الجنين، وإذا تأملنا الآيات الكريمة وجدنا أن حرف العطف «ثم» يدل على هذا الترتيب مع التراخى وحرف العطف «الفاء» يدل على الترتيب والتعقيب وتتابع الأطوار، والإتيان بالفاء فى قوله تعالى: ﴿فتبارك الله﴾ إشارة إلى أن

٦- سورة المؤمنون الآيات (١٢، ١٣، ١٤)

أدنى تأمل فى أطوار خلق الإنسان كفيل بإنطاق اللسان على الفور بما يفيد قدسية الله وعلو شأنه وباهر قدرته وكمال علمه.

ومن طريف مايروى من أسرار حروف المعانى ما ذكره الخطابى (١) من أن أبا العالية رفيع بن مهران ت ٩٠ هـ سأله رجل عن قوله تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ماهذا السهو؟

قال: الذى لايدرى عن كم ينصرف عن شفع أو عن وتر؟.

قال الحسن البصرى ت ١٢٦ هـ وكان حاضرا، مَهْ يا أبا العالية، ليس هذا، بل الذين سهوا عن ميقاتها حتى تفوتهم، ألا ترى قوله تعالى: ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ويعلق الخطابى على هذا فيقول: «إنما أتى أبا العالية فى هذا حيث لم يفرق بين حرف «عن» و «فى» فتنبه له الحسن البصرى فقال: ألا ترى قوله تعالى: ﴿عن صلاتهم﴾ فهذا يؤيد أن السهو الذى هو الغلط فى العدد، إنما يعرض فى الصلاة بعد ملابستها، فلو كان هو المراد لقيل «فى صلاتهم ساهون» فلما قال: «عن صلاتهم» دلّ على أن المراد به الذهاب عن الوقت..

ولو أن الأمر كان على ماذكره أبو العالية لترتب عليه أن مجرد السهو فى الصلاة ينزل بصاحبه الويل والهلاك ولم يقل بذلك أحد، ولهذا المعنى قال ابن عباس رضى الله عنه «الحمد لله الذى قال: «عن صلاتهم ساهون» ولم يقل «فى صلاتهم»

١- بيان إعجاز القرآن ص٣٢

وفى القرآن الكريم شواهد إعجاز بيانى فى ألفاظه وكلماته بفصاحتها ودقة أدائها لمعانيها، وانسجامها مع المعنى العام للآية الكريمة وجمال ائتلافها مع غيرها من الكلمات ...

يقول البارزى فى أول كتابه «أنوار التحصيل فى أسرار التنزيل» :

اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معانى الجمل واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها واستحضار هذا متعذر على البشر فى أكثر الأحوال وذلك عتيد حاصل فى علم الله فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وجنَى الجنّتين دان﴾ (١) لو قال مكانه «وثمر الجنتين قريب» لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل.

ومنه قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ (٢) (تتلو) أحسن من التعبير بـ «تقرأ» لثقله بالهمزة وتخط أحسن من «تكتب» فى سياقه مع «كتاب» ومنه أيضا «لا ريب فيه» (٣) أحسن من «لاشك فيه» لثقل الإدغام ولهذا كثر

١- سورة الرحمن الآية (٥٤) ٢- سورة العنكبوت الآية (٤٨)

٣- سورة البقرة الآية (٢)

الريب.

ومن قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ (١) أحسن من «ولا تضعفوا» لخفته ولدلالته على ضعف بالغ وتخاذل شديد ومثل «وهن العظم منّي» (٢)

وقوله تعالى: ﴿قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا﴾(٣)أخف من فضّلك وأدل على مزيد من الرعاية والتفضيل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تصعّر خدّك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا﴾ (٤) جيء بـ «تصعّر» بدلا من «تتعالى» أو «تعرض» لأن لفظة التصعير توحى بمعان ودلالات كثيرة تدور حول داء الصَّعَر وهو مرض يصيب الإبل فيلوى أعناقها وتمشى معوجة الأعناق رافعة رءوسها متجهة بأنوفها إلى أعلى فى منظر قبيح يثير الإشفاق.

وفى هذا تصوير للمتكبر المتعالى تصويرا يوحى بالسخرية والاستهزاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (٥)

أى هى دار الحياة الحقيقية التى لا يعتريها فناء أو زوال أو هى الحياة ذاتها على سبيل المبالغة والحيوان مصدر (حيى) وهو أبلغ من الحياة لأن صيغة «فَعَلان» فيها من معانى الحيوية والحركة

١- سورة آل عمران الآية (١٣٩) ٢- سورة مريم الآية (٤)

٣- سورة يوسف الآية (٩١) ٤- سورة لقمان الآية (١٨)

٥- سورة العنكبوت الآية (٦٩)

مافيها ولذلك كانت مناسبة فى مقامها.

وقد يستقل لفظ واحد فى نسق تعبيرى برسم صورة شاخصة يزيد من قيمتها أن لفظا مفردا هو الذى يرسم هذه الصورة بجرسه الذى يلقيه فى الآذان وبإيحائه الذى يضيفه على المعنى والمضمون، تأمل قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾ (١)

لو أنه جيء بكلمة أخرى غير «اثّاقلتم» لتلاشى الجرس الموسيقى ولتلاشى الإيحاء بالتثاقل الشديد وكراهية أن ينفروا فى سبيل الله، والتخاذل والتقاعس عن واجب الذود عن الدين.

ومثله قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم﴾ (٢) فى تمثيل الغليظ الجافى المتنطع، وقوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ (٣)

فالانسلاخ يعنى تخلصا تاما من شيء كان لصيقا به على وجه النزع والكشط والاستلال، ومثله قوله تعالى: ﴿وآية لهم الليل نَسْلَخ منه النهار، فإذا هم مظلمون﴾ (٤)

ومنه قوله تعالى: ﴿فأكله الذئب﴾ (٥) إذ لم يجر على عرف أصحاب اللغة والعارفين بها فيقول «فافترسه الذئب» وذلك لأن الأكل هنا أبلغ فى الدلالة على مراد إخوة يوسف إذ الافتراس

١-سورة التوبة الآية (٣٨) ٢- سورة القلم الآية (١٣)

٣- سورة الأعراف الآية (١٧٥) ٤- سورة يس الآية (٣٧)

٥-سورة يوسف الآية (١٧)

معناه فى فعل السبع القتل فحسب وأصل «الفَرْس» دق العنق وإخوة يوسف ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلا ولا عظما، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة والفَرْس لايعطى تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿إنّا نخاف من ربنا يوما عَبُوسا قمطريرا﴾(١)

تحس فى قراره نفسك بأن يوم القيامة عنيف ثقيل كالح الوجه مكفهر التقاطيع ليس فيه أمل أو رجاء للكافرين، وبتوالى كلمتى «عبوس وقمطرير» يبدو هذا الثقل الراسخ فى اليوم الكريه وهذا هو ما يتمنى المؤمنون أن يتجنبوه.

هكذا يتأكد أن من أبرز مظاهر الإعجاز فى النظم القرآنى أن الكلمة توضع فى مكانها كاللّبنة فى البناء لا يصلح غيرها موضعها ولو تقارب المعنى وتساوى معها فى الطول والعرض لأن لكل كلمة دلالة خاصة، وإيحاء خاصا، وانسجاما فى التركيب، ولا يستطيع أن يلمّ بسائر الدلالات، ويوازن بين دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق تعبير، والمصورة لخلجات النفوس، وخطرات الضمائر إلا العليم الخبير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وتأليف الكلام ونسقه ونظمه هو الذى يمنح الكلمة حظها من الحياة والحيوية والإيحاء فى بناء متكامل يأخذ بعضه بحجز

١- سورة الإنسان الآية (١٠)

بعض بتمازج قوى بين الألفاظ ومعانيها وتجاذب روحى عجيب هو من أخص سمات الأسلوب القرآنى المعجز.

تأمل هذا النسق العجيب فى قول الحق تبارك وتعالى فى قصة نوح والطوفان: ﴿وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقُضِىَ الأمر واستوت على الجوُدى وقيل بُعْداً للقوم الظالمين﴾(١)

هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وسائر آيات الله معجز بلا جدال تتقاصر كل القوى عن الإتيان بمثلها، وتتطامن أمام عظمتها وسحر بيانها.

إن نسق هذه الآية ونظمها بهذا الشكل الرائع وعلى تلك الهيئة المتجانسة المتآلفة يدخل فى مجال التصوير الحسّي المثير إذ أنها ترسم نهاية سريعة وحاسمة لقصة الطوفان بعد سلسلة متوالية من الصراع ومشاهد متتابعة من عدوان الشر على الخير وفى برهة كلمح البصر انتهى كل شىء وهلك الكافرون من قوم نوح كأن لم تكن لهم قائمة فى يوم من الأيام وكأن لم تنهمر السماء ولم تتفجر ينابيع الأرض، وكأن لم تكن هناك سفينة وحيدة فى خضم رهيب تصارع أمواجا مهولة وتتقاذفها مياه عاتية.

هكذا فى غمضة عين جفت الأرض، وأقلعت السماء وأمسكت ورست السفينة على الجودى فأسدل الستار على المأساة بفعل مبنى للمجهول ونائب فاعله: «وغيض الماء وقضى الأمر»

١- سورة هود الآية (٤٤)

إيجاز بليغ فى موقف مهول ترتاع له القلوب وترجف الأبدان، وأسفر هذا الصراع الرهيب عن نتيجة حاسمة تمثلت فى انتصار الحق وأهله وهلاك القوم الظالمين.

واستوت على الجُودى وقيل بعدا للقوم الظالمين .

وبناء الأفعال لما لم يُسَمَّ فاعله فى «وقيل» و «غيض» و «قضى» فى نسق واحد من شأنه فى مثل هذا الموقف أن يثير فى النفوس تساؤلا وعجبا فمن هذا الذى قال للأرض ابلعى، وللسماء أقلعى؟ أو بتدبير مَنْ انقضى الأمر واستوت السفينة على الجودى؟

إنها إثارة بالغة تدفع إلى تفكير عميق يؤدى إلى مدبِّر الأمر كله وهو الله العلى القدير، والإثارة عن طريق الفعل المبنى للمجهول أمرها مألوف ومعروف وبخاصة فى مجال القصص الوصفى، بالإضافة إلى ما فى «غيض» و «قضى الأمر» من تصوير للسرعة التى تمَّ بها ذلك كأنما حدث من تلقاء نفسه بغير فعل فاعل، وقد أوثر فى نداء الأرض «يا» دون سائر أخواتها لكونها أكثر استعمالا وأدل على عظمة المنادى وجلال شأنه والإتيان بالهمزة بدل «يا» فيه ثقل فى النطق، والإتيان بـ «أيا» فيه تكلف التنبيه المشعر بغفلة الأرض وذلك لا يناسب المقام لكونها رهن أمر الله على كل حال.

واختيار لفظ الأرض والسماء على سائر أسمائهما لكونهما أخصر وأورد فى الاستعمال وأوفى بالمطابقة.

وأوثر تنكير الأرض والسماء لما فى ذلك من تصغير أمرهما وتهوين شأنهما أمام عظمة الله وقوته العليا التى تتضاءل دونها قوى

الطبيعة، والتعبير بقوله تعالى: «ابلعى» لما يوحى به البلع من السرعة فى امتصاص الماء ولما فيها من تجانس مع «أقلعى» وفى إضافة الماء إليها إيحاء بأنها جديرة بأن تمتص بسرعة سريعة ماءً هو ماؤها وأن ذلك ليس بعسير عليها وإنما لم يقل «ابلعى» بدون ذكر للمفعول لئلا يستلزم ذلك تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار والأنهار وسائر ماعليها.

ولم يذكر متعلق «أقلعى» اختصارا واحترازا عن الحشو المستغنى عنه لأن المقصود بالإقلاع إمساك السماء عن إرسال الماء لما تقدمه من قوله تعالى: «ابلعى ماءك» وكأنه قال: «وياسماء أمسكى ماءك»

ولكمال انقياد السماء والأرض لأمر الله استغنى عن ذكر حصول المأمورية بعد الأمر، فلم يقل «وقيل ياأرض ابلعى ماءك فبلعت، وياسماء أقلعى فأقلعت» لأن امتثالهما وانقيادهما لأمر الله لاجدال فيه.

وقدم النداء على الأمر فى قوله: «ياأرض ابلعى .. ياسماء أقلعى» جريا على مقتضى اللازم من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقبه فى نفس المنادى قصدا بذلك لمعنى الترشيح للاستعارة المكنية فى الأرض والسماء وتشخصيهما ومخاطبتهما وتوجيه الأمر إليهما، ومن الجائز أن يكون الأمر والنداء على سبيل الحقيقة من الله الخالق القادر إلى الكائن المخلوق مهما كان شأنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ياجبال أوّبى معه والطير﴾

وقوله سبحانه ﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا

تفقهون تسبيحهم﴾

وقدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل ولأن ابتداء الطوفان كان منها، حيث فار تنُّورها أولا، واختيرت كلمة «استوت» دون «رست» مثلا لما فيها من الدلالة على التمكن والثبات والاستقرار وجيء بها مبنية للمعلوم اعتبارا للفعل المقابل لـ «استوت» وهو قوله: «وهى تجرى بهم» فقد جاء منسوبا إلى السفينة على صيغة المبنى للفاعل فناسب أن يكون مقابله كذلك، وبنى الفعل «وقيل بعدا» للمجهول للإشارة إلى أن هذا القول لم يصدر من جهة واحدة معلومة وإنما صدر من كثرة لاتُعَد ولا تُحصى حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء سخطا على القوم الظالمين.

وجاءت كلمة «بعدا» دون «هلاكا» مثلا إشارة إلى أن هلاك هولاء الظالمين مقصود به إبعادهم عن الإفساد فى الأرض والسخرية من جماعة المؤمنين وذلك بإهلاكهم، وإبعادهم كذلك عن رحاب الرحمة وسبل النجاة بما كسبت أيديهم وما اقترفوه من آثام ولا يظلم ربك أحدا.

وفيه احتقار لهم وإهانة وإذلال لأن القرآن أشاح عن مخاطبتهم وأغفل حالهم واكتفى بقوله فى هذا الموقف العصيب «بعدا للقوم الظالمين» وفى ذلك أيضا راحة وتسلية وتسرية وطمأنينة لجماعة المؤمنين الذين آمنوا وصدقوا وصمدوا للهزء والسخرية وتحملوا الإيذاء وركبوا السفينة مع نوح ونجوا من هلاك محقق وطوفان مدمِّر.

واختيار المصدر دون الفعل فى قوله تعالى: «بُعدا» لتأكد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار لأن المعنى: ليبعدوا بعدا مع الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام، وقد جاء وصفهم بالظلم مطلقا عن التقييد لأفادة المبالغة فى اتصافهم به وأنه ظلم عام شامل يدخل فيه أيضا ظلمهم لأنفسهم بإيقاعها فى الهلاك.

وقوله تعالى: «للقوم» أى لهؤلاء المعهودين المذكورين من قبل فى قوله تعالى: ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ أى أن هذا الإبعاد انصب على هولاء القوم الظالمين.

أرأيت كم من وجوه البلاغة والبيان فى آية واحدة من كتاب الله وكم من الأسرار العجيبة التى لم نحط إلا بجزء يسير منها فى هذه الآية.

وقد أتيح لابن أبى الإصبع أن يلتمس واحدا وعشرين وجها من وجوه المحاسن فى هذه الآية الكريمة (١) وصد ق الله العظيم «تنزيل من حكيم حميد»

وأَوَدُّ أن أتوقف مع «عبد القاهر الجرجانى» فى تحليل بيانى له فى آية كريمة من آيات الله البينات يقول:(٢)

«إن فى الاستعارة ما لايمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم، والوقوف على حقيقته، ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ (٣) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا

١- تحرير التحبير ص ٦١١

٢- دلائل الإعجاز ص ٧٩ وما بعدها.

٣- سورة مريم الآية (٤)

للمزية موجبا سواها.

هكذا نرى الأمر فى ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشىء، وهو لما هو من سببه فيرفع به مايسند إليه، ويؤتى بالذى الفعل له فى المعنى منصوبا بعده، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كانا من أجل هذا الثانى، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم: طاب زيد نفسا، وقر عمرو عينا ...

وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولا عن الشىء إلى ما ذلك لشىء من سببه..

وذلك أنا نعلم: أن اشتعل للشيب فى المعنى وإن كان هو للرأس فى اللفظ، كما أن طاب للنفس، وقر للعين..

وإن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك، وتوخى به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا فتقول: اشتعل شيب الرأس، والشيب فى الرأس ثم تنظر: هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟

وهل ترى الروعة التى كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب فى أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى: الشمول وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به، وهذا ما لايكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس أو الشيب فى الرأس، بل لايوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة.

ونظير هذا فى التنزيل قوله عز وجل: ﴿وفجّرنا الأرض عيونا﴾ (١) التفجير للعيون فى المعنى، وأوقع على الأرض فى اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا مثل الذى حصل هناك، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل:

«وفجرنا عيون الأرض» أو «العيون فى الأرض» لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة فى الأرض وتبجس من أماكن منها، واعلم أن فى الآية الأولى شيئا آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية، ولو قيل: واشتعل رأسى فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه.

وبعد كلام عبد القاهر نقول: هناك أيضا شيء آخر، هناك هذه الحركة التخييلية السريعة التى يصورها التعبير حركة الاشتعال التى تناول الرأس فى لحظة، وحركة التفجير التى تفور بها الأرض فى ومضة، فهذه الحركة التخييلية تلمس الحس وتثير الخيال

١- سورة القمر الآية (١٢)

وتشرك النظر والمخيلة فى تذوق الجمال وهى فى «واشتعل الرأس شيبا» أوضح وأقوى لأن حركة الاشتعال هنا حركة ممنوحة للشيب وليست له فى الحقيقة وهذه الحركة هى عنصر الجمال الصحيح.

ومن شواهد ائتلاف اللفظ مع المعنى قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ (١)

فإنه لما كان الركون إلى الظالم دون فعل الظلم وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم، ومس النار فى الحقيقة دون الإحراق، ولما كان الإحراق عقابا للظالم أوجب العدل أن يكون المس عقاب الراكن إلى الظالم فلهذا لم يقل: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتدخلوا النار» لكون الدخول مظنة الإحراق، وخص المس ليشير به إلى ما يقتضى الركون من العقاب، ويميز بين ما يستحق الظالم وما يستحق الراكن إليه من العقاب، وإن كان مس النار قد يطلق ويراد به الإحراق ولكن هذا الإطلاق مجاز والحقيقة ما ذكرناه لأن حقيقة «المس» ملاقاة الجسم حرارة النار، وإذا احتمل اللفظ احتمالات صرف منها إلى ماتدل عليه القرائن والائتلاف فى هذه الآية معنوى وهو فى التى قبلها لفظى.

ومن روائع التشبيه والتمثيل فى القرآن الكريم قوله تعالى فى شأن اليهود: مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يَحْمِلُوها كمثل الحمار يحمل أسفارا... (٢) فقد شبه اليهود وقد حملوا التوراة وقرأوها وحفظوا ما فيها، ولم يعملوا بها ولا انتفعوا بآياتها بحال حمار هو غاية فى الغباء والبلادة يحمل أسفارا هى أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول.

١- سورة هود الآية (١١٣) ٢- سورة الجمعة الآية (٥)

وهو جاهل بمضمونها لاحظ له منها إلا ما يناله من الكد والعناء، ووجه الشبه شقاء كلٍّ باستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة، والفوائد الشريفة من غير أن يحصل على شيء من تلك المنافع أو يعود عليه بعض تلك الفوائد والقصد من هذا التمثيل ذم اليهود والسخرية منهم وتقبيح أمرهم والتشنيع عليهم، ويصل التشنيع والتبشيع إلى أقصى مايمكن تصوره إذا تأملنا حال الحمار وحالهم وأدركنا أنهم جاوزوها سوءا ورعونة وغباء إذ الحمار بتكوينه وطبيعته لاحاجة له فى علم ومعرفة ولم يكلف بشيء من ذلك ثم إنه معذور كل العذر فى كونه يحمل على ظهره نافعا لم يحاول الإفادة منه، أما اليهود فإنهم أبعد من ذلك غباء وحمقا إذ أنهم يعلمون ويدركون قيمة ما كلفهم الله به ومدي مافيه من نفع وخير لهم وهم قادرون على أن يفيدوا وينتفعوا مما قرأوه وعلموه بيد أنهم لم يفعلوا ..

فما أعجب شأنهم؟ وما أسوأ مثلهم؟وللأمثال القصصية فى القرآن الكريم سمو بلاغتها وقوة تأثيرها، وسحر أسلوبها، وجلال مقصدها، وبالغ عبرتها..

تأمل قول الله تبارك وتعالى(١) ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنّتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا، كلتا الجنتين آتت أُكُلها ولم تظلم منه شيئا وفجّرنا خلالهما نهرا، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر مُنكَ مالا وأعزُّ نفرا، ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنُّ أن تبيد هذه

١- سورة الكهف الآيات من ٣٢ إلى ٤٥

أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددتُ إلى ربى لأجدنَّ خيرا منها مُنْقَلَبا، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرتَ بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلا، لكنَّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا، ولولا إذا دخلتَ جنَّتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنى أنا أقلَّ منك مالا وولدا، فعسى ربىَّ أن يؤتينى خيرا من جنَّتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زَلَقا، أو يصبح ماؤها غَوْرا فلن تستطيع له طلبا، وأحيط بثمُرْه فأصبح يقلب كفَّيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربِّى أحدا، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصرا، هنالك الولاية للَّه الحقِّ هو خير ثوابا وخير عُقُبًا. واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا﴾

مشهد رائع غاية الروعة مفعم بالخصوبة والجمال والنضرة والنعيم:

جنتان مثمرتان من الكروم محفوفتان بسياج من النخيل تتوسطهما زروع يانعة، وثمار ناضجة، ويتفجر بينهما نهر غزير يفيض بالعذب النَّمير ..

حقا إنه مشهد بهيج يموج بالحيوية الدافقة، ويُزهى بالخير والجمال، ويدعو بقوة إلى شكر المنعم المتفضل والاعتراف بنعمته، والإقرار بربوبيته..

لكن صاحب هاتين الجنتين لم يكن على مستوى هذه النعمة إذ أخذ يزهو متعاليا على صاحبه الفقير المؤمن مؤكدا أنه فى

نعيم دائم وحياة خالدة..

هما رجلان إذن يضرب الله بهما المثل، ولأحدهما فحسب كانت هاتان الجنتان ولكن .. من هذان الرجلان؟ وفى أية بيئة وفى أى عصر كانا يعيشان؟

هذا لايهم فى مجال ضرب الأمثال وتقديم النماذج والأنماط.. إنما العبرة بالموقف والحدث وصولا إلى العظة والتوجيه.

وكما قلت فقد كان من المتوقع أن يقابل هذا النعيم بشكر الله وحمده والإذعان لأمره والإيمان به والتصديق بالبعث والحساب ونبذ الكبر والغرور.

بيد أن الأمور لم تمض على هذه الشاكلة فها هو ذا صاحب الجنتين تمتلىء نفسه زهوا وغرورا، وتعاليا وتكبرا، ويأبى إلا أن يجبه صاحبه بما يؤلم ويكدّر «أنا أكثر منك مالا وأعزُّ نفرا» ويخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وهو يكاد يتفجر كبْرا وغرورا وبطرا وأشرا وكان فى ذلك ظالما لنفسه ولم يكن منسجما مع جنّتيه اللتين آتت كل واحدة منهما أكلها وثمارها ولم تظلم منه شيئا، فشتّان بين الاثنين.. لقد ضل عن سبيل الهدى وحاد عن شكر الله وظن أن جنّاته المثمرة لن تبيد أبدا وأنكر أن تكون هناك قيامة وحساب وجزاء وحتى لو قامت قيامة فإنه يتوقع لنفسه رعاية وإيثارا فى الآخرة أليس هو صاحب الجنات والنعيم فى الدنيا فلابد أن يكون معزّزاً مكرّماً فى الآخرة.

وجاء التعبير بقوله تعالى: «وهو ظالم لنفسه» مؤكدا غشاوة الغفلة والغرور التى ملأت نفسه فصرفتها عن رشدها، وأوقعتها فى

شَرَك غرورها، وغضب ربها..

وأما صاحبه الفقير المحروم من المال والنعيم ووفرة الأهل والولد فإنه قانع راض بما هو فيه من إيمان بربه واعتزاز بعقيدته واستسلام لإرادة ربه، ومشيئته، وامتلاء بفيض عنايته ورعايته، وهو يوجه صاحبه وجهة الإيمان والحق ويعطفه نحو الشكر الواجب للمنعم المتفضل..

وهكذا تنتفض عزة الإيمان فى النفس المؤمنة فلا تبالى ولا تدارى ولا تجامل ولا تخشى فى الحق لومة لائم، وما أروع هذا الاستفهام الإنكارى فى إطار الدلائل الدامغة والشواهد الناطقة بقدرة الخالق البارىء المهيمن.

«أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا» وما أعجب المقارنة بين رجلين لأحدهما نعيم وجحود وكفر، وللآخر فقر وعرفان وإيمان وشكر!! وما أبدع التوجيه الإيمانى السامى بما يحمل من سمات الوعى واليقين على لسان الرجل الفقير المؤمن «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله» هل هناك ماهو أدل على بديع الصنع من قول «ماشاء الله» تلك التى لاتقال إلا فى مواقف الانبهار والجمال والجلال وهل هناك ما هو أدل على رسوخ اليقين من قول «لاقوة إلا بالله» تلك التى يهتف بها المؤمن من أعماقه اعترافا بقدرة الله وتأكيدا لعظمته وجلاله بطريق القصر على سبيل النّفى والاستثناء.

فهو وحده القادر على أن يؤتى المحروم البائس جنة خيرا من جنة هذا الغنى الغَوِي أو يبيدها ويهلكها أو أن يمنع عنها الماء

والخصب والنماء.

وشاءت إرادة الله أن يتحقق فى لحظات ما كان يتوقعه العبد المؤمن ويرجوه فإذا الجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة كأن لم تغن بالأمس، وإذا بصاحبها يقلب كفّيه أسفا وحزنا على ما أنفق فيها من مال وجهد وهو نادم على إشراكه بربه ويقول: «ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ولم يكن له فى موقفه من ولى ينصره من دون الله وما كان منتصرا إذ الولاية والنصرة لله وحده، لا نصر إلا نصره، ولا ثواب إلا ثوابه، وله سبحانه عاقبة الأمور.

وأمام هذا المشهد المثير يضرب الله مثلا آخر للحياة الدنيا كلها فإذا هى تلك الجنة الهالكة فانية فانية، لابقاء لها ولا قرار «كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا»

هكذا عرض خاطف سريع متلاحق يلقى فى روع كل نفس قتامة الإحساس بالفناء والزوال فالماء ينزل من السماء فلا يجرى ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض فلا ينمو ولا ينضج ولكنه يغدو هشيما تذروه الرياح، ولقد استخدم النسق اللفظى أدق استخدام فى تقصير عرض المشاهد بالتعقيب الفورى الذى تدل عليه الفاء «فـ اختلط به نبات الأرض فـ أصبح هشيما تذروه الرياح..» فما أقصر هذه الحياة الدنيا !! وما أهونها من حياة..

وفى الإتيان بـ «الرياح» بصيغة الجمع للدلالة على شدة التبدد وحتمية الضياع .. فما أقصر هذه الحياة الدنيا !! وما أهونها من حياة !!

وتأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كلّ حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون.

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثّت من فوق الأرض مالها من قرار..» (١)

بدىء الكلام بتوجيه النظر إلى ضرب الله المثل ببيان ناصع وحكمة بالغة وتأثير قوى على سبيل الاستفهام التقريرى الذى لا يحتمل شكا ولا يقبل جدلا، والكلمة الطيبة كلمة التوحيد والإيمان، كلمة الهداية والرشاد، كلمة الخير والنفع، كلمة النصح والتوجيه وما شابه ذلك والكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر والضلال كلمة الشر والفساد، كلمة الخداع والتمويه، كلمة الباطل والزور وما شابه ذلك..

وقد مثّل الله تبارك وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة الخصبة المثمرة ذات الأصل الثابت المكين والفروع السامقة الممتدة الضاربة فى الفضاء، كما مثّل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة الفاسدة التى لا أصل لها ولا فرع ولا ثبات ولا قرار.

وكذلك دائما شأن الحق والباطل والطيب والخبيث والخير والشر وفى المثلين بلاغة الاستيفاء، وتمام الأداء، ودقة البيان، وقوة التمكين للمعانى فى النفوس، واستكمال ملامح الصورة فى الأذهان والخواطر، وحسن المقابلة بين الأسلوبين لمزيد من التوضيح

١- سورة ابراهيم الآيات من ٢٤ إلى ٢٦

والبيان، والعناية بتوجيه الأنظار ولفت المدارك والأفهام إلى الغاية المرجوة والهدف المقصود من ضرب الأمثال للعظة والاعتبار والتذكر والامتثال...

بعد ذلك يأتى قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾(١)

منسجما غاية الانسجام ملتئما تمام الالتئام مع مغزى المثلين ومضمونهما من طيب ذى أصل ثابت يعلو بالخير والنماء ومن خبيث مجتث من فوق الأرض ليس له قرار.

يقول الزركشى (٢) وفى ضرب الأمثال من تقرير المقصود مالايخفى عن طريق تشبيه الخفى بالجلى، والغائب بالشاهد فالمرغب فى الإيمان إذا مثل له الإيمان بالنور تأكد فى قلبه المقصود، والمزهد فى الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد له قبح الكفر وضرره..

وقد أكثر الله تبارك وتعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة.

وتمتاز هذه الأمثال بأنها من وحى الطبيعة والفطرة وبذلك اتسمت بالجلاء والوضوح، واكتسبت سمة الخلود، كما تمتاز ببلاغة الاستيفاء وتمام الأداء ودقة البيان وقوة التمكين للمعانى واستكمال ملامح الصورة، وجودة التعبير، وبراعة الإيحاء، وجمال الإيقاع، وكمال الإبداع، وحسن الإمتاع.

١- سورة ابراهيم الآية (٢٧) ٢- البرهان حـ١ ص ٤٨٨

وقد أفرد «أمثال القرآن» بالتأليف كثير من العلماء، نذكر منهم: أبا عبد الرحمن محمد بن حسين السلمى النيسابورى ت ٤٠٦ هـ والإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ت ٧٥٤ هـ والإمام أبا الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى ت ٤٥٠ هـ والسيوطى فى «الإتقان» والزركشى فى «البرهان» وابن القيم فى «أعلام الموقعين»

ومن شواهد تكامل المعانى مع الإيجاز البليغ ودقة الأداء وروعة البيان وبراعة الاستيعاب (الوصايا العشر) الواردة فى سورة الأنعام فى ثلاث آيات فقط، يقف التفسير إزاءها مأخوذا بسحرها وجلالها يصول ويجول مع كل معنى ويلهث وراء كل قصد متتبعا دقة الأداء وجمال كل لفظ واستقامة كل تعبير وائتلاف النظم واتساق الغايات والمقاصد.

لقد استوعبت هذه الآيات الثلاث الوصايا العشر التى وضعت أساس العقيدة فى توحيد الله، وبنت الأسرة على أساس من الخلق الفاضل بالإحسان إلى الوالدين، وحفظت الاجتماع بحرمة الأنفس والأعراض والأموال والنظام العام، ثم ربطت التقوى العامة المطلقة التى هى منبع كل خير وسبيل كل فلاح بدعامة قوية متينة من الالتزام بصراط الله المستقيم.

وقد أطلق العلماء على هذه الآيات اسم «الوصايا العشر» نظرا لتذييل آياتها الثلاث بقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ذلكم وصاكم به ..﴾

وقد روى عن ابن مسعود أنه قال: «من سرّه أن ينظر إلى

وصية محمد التى عليها خاتمة فليقرأ هولاء الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. الخ﴾

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكم يبايعنى على هذه الآيات الثلاث؟ ثم تلا: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. الخ

ثم قال: «فمن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن آخرة إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه»

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار.

وعن كعب الأحبار «والذى نفسى كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء فى التوراة»

الوصايا العشر

من سورة الأنعام الآيات (١٥١ - ١٥٣)

مقدمة:

سورة الأنعام سورة مكية آياتها خمس وستون ومائة ترتيبها فى المصحف الشريف قبل «الأعراف» لكنها فى النزول كانت بعد الأعراف وذلك لأن للترتيب المصحفى شأنا آخر يختلف عن شأن مايدعو إلى النزول الذى كان يراعى فيه حالة المدعوين وتهيئتهم لقبول الدعوة حتى إذا ما اكتملت مراحلها ودخل الناس فى دين الله أفواجا وتكونت جماعة المسلمين وأمتهم واستقرت أمورها وصار قرآنها كتاب أمة ترجع إليه فى حفظ عقائدها واستخراج أحكامها ومبادىء حياتها الفردية والاجتماعية، كان لابد من ترتيب جيد غير ترتيب النزول وهو هذا الترتيب الذى نقل به القرآن الكريم إلينا نقلا متواترا عن النبى صلى الله عليه وسلم بإلهام إلنهى تلقاه الرسول وملأ قلوب أصحابه فالتزموه وحفظوه وتلقته عنهم الأجيال على هذا الوضع دون تغيير أو تبديل.

وسورة الأنعام مثل سائر السور المكية تتناول قضية العقيدة فى قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية .. ومابينهما من علاقة.

كما تتناول قضية الوحى والرسالة وقضية البعث والجزاء.

إن موضوعها الذى تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة بكل مقوماتها وبكل مكوناتها وهى تأخذ بمجامع

النفس البشرية وتطوف بها فى الوجود كله.. فى ملكوت السموات والأرض والظلمات والنور والشمس والقمر والنجوم والجنات المعروشات وغير المعروشات والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها وتقف بها على مصارع الأمم الخالية واثارها البائدة والباقية ثم تسبح بها فى ظلمات البر والبحر وأسرار الغيب والنفس والحى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى والحبة المستكنة فى ظلمات الأرض والنطفة المستقرة فى ظلمات الرحم ثم تموج بالجن والإنس والطير والوحش والأولين والآخرين والموتى والأحياء والحفظة على النفس بالليل النهار.

كل هذه المعانى الجليلة فى إطار قضايا الألوهية والرسالة والبعث وما يتابع ذلك من خضوع وإذعان وتسليم لأمر الله وحكمه.

وسورة الأنعام من بين السور المكية ذات شأن فى تركيز الدعوة الإسلامية تقرر حقائقها وتفيد شبه المعارضين لها واقتضت لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل مع طولها وتنوع آياتها ـ جملة واحدة وأن تكون ذات امتياز خاص لايعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء وفى ذلك يقول الإمام الرازى فى أول تفسيره لهذه السورة: «قال الأصوليون: امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة وثانيهما أنه شيعها سبعون ألفا من الملائكة»

ثم قال: «والسبب فى هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين»

ويقول الإمام القرطبى: «قال العلماء إن هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة.

الآيات:

﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكُم ألا تُشْرِكُوا به شيئا وبالوالِدَيْن إحْسَانا ولا تقْتُلوا أولادَكم من إمْلاَقٍ نحن نَرزُقكُم وإيَّاهم، ولا تقْرَبوا الفَواحِشَ ما ظهرَ منها وما بطن، ولا تقتُلوا النفسَ التى حرَّم الله إلا بالحق ذلكم وصَّاكم به لعلكم تعقلون.

ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالتِّى هِىَ أحْسنُ حتى يبلُغَ أشدَّه وأوفُوا الكيلَ والميزانَ بالقسْط لا نكلِّفُ نفْساً إلا وُسْعَها وإذا قلْتُم فاعْدلُوا ولو كانَ ذا قُرْبَى وبعَهْدِ الله أوفوا ذلكم وصَّاكم به لعلكم تَذكَّرُون. وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكُمْ عن سبيله، ذلكم وصَّاكُم به لعلكم تتَّقُون﴾

لغويات:

تعالوا: هلموا وأقبلوا، فعل أمر لدلالته على الطلب وقبوله ياء المخاطبة والزمخشرى يرى أنه اسم فعل أمر.

أتل: واقع فى جواب الأمر مجزوم بحذف حرف العلة تلا القرآن يتلوه تلاوة بمعنى قرأه أى تعالوا أقرأ ما حرم ربكم عليكم وابن كثير يفسره بقوله أى أقص عليكم وأخبركم.

تشركوا به شيئا: الإشراك بالله هو أن يتخذ له سبحانه شريك فى ملكه وربوبيته وفيما هو من خصائص الألوهية وهو غير

إنكار الربوبية والألوهية على الإطلاق.

من إملاق: من فقر وأملق: افتقر ومادته من المحو وفى القاموس المحيط ملقه: محاه وكأن المملق ممحو ماله تماما.

الفواحش: الفاحشة: الزنا ومايشتد قبحه من الذنوب وكل ما نهى الله عز وجل عنه، والفحشاء أيضا البخل فى أداء الزكاة، ذكره الفيروز أبادى فى معجمه.

اليتيم: الصغير الذى فقد أباه ومن البهائم فاقد الأم والأصل فى اليُتْم الانفراد ومن هنا أطلق لفظ اليتيم على الفرد الذى يعز وجود نظير له.

القِسْط: بكسر القاف السوية والعدل من المصادر الموصوف بها أما القَسط بفتح القاف فهو الجور والعدل عن الحق ومثله القُسوط بضم القاف.

السُّبُل: الطرق المختلفة جمع سبيل والمراد بها فى الآيات مايخالف شرع الله ودينه من العقائد والبدع والضلالات.

فتفرَّق بكم عن سبيله: أى فتفرقكم عن طريق الله وصراطه المستقيم وهو الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده دينا.

ذالكم: ذا : اسم إشارة واللام للبعد، و «كم» ضمير المخاطبين والإشارة راجعة إلى ما ذكر من الأوامر والنواهى، والبعد فيها بعد معنوى لما لهذه الوصايا من آثار بعيدة المدى فى حياة الفرد والجماعة.

وصاكم: أوصاه ووصَّاه توصية عهد إليه والاسم الوَصاة

والوصاية والوصية وهو الموصى به أيضا، ويوصيكم الله أى يفرض عليكم وقوله تعالى: ﴿أتواصوا به﴾ أى أوصى به أولهم آخرهم.

لعلكم تتقون: رجاء أن تتقوا ربكم وتخشوه وأصله من الوقاية والحفظ بمعنى أن يقى نفسه ويحفظها من غضب الله وهو أهل التقوى أى أهل أن يُتقى عقابه والاسم: التقوى وأصله وقيا أبدلت الياء واوا للفرق بين الاسم والصفة ثم أبدلت الواو الأولى تاء، فصارت تقوى.

الشرح والتفسير:

وردت آيات الوصايا العشر فى السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها فإذا هى قوام هذا الدين كله.. إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات وقوام حياة الإنسانية ومايحوط الحقوق فيها من ضمانات مرتبطة بعهد الله كما أنها بدئت بتوحيد الله.

فقد رسمت هذه الآيات للإنسان طريق علاقته بربه الذى يرجع إليه الإحسان والفضل فى كل شيء «ألا تشركوا به شيئا» ووضعت الأساس المتين الذى يبنى عليه صرح الأسرة التى هى العنصر الفعّال فى كيان الأمة القوية الناهضة «وبالوالدين إحسانا»

وسدّت منافذ الشر الذى يصيب الإنسان من الإنسان فى الأنفس والأعراض والأموال وهى عناصر لابد منها لسلامة الأمة «ولاتقتلوا أولادكم» «ولا تقتلوا النفس» «ولا تقربوا مال اليتيم» ثم ذكرت أهم المبادىء التى تسمو بالتزامها والمحافظة عليها الحياة

الاجتماعية الفاضلة «وأفوا الكيل والميزان» «وإذا قلتم فاعدلوا» وبعهد الله أوفوا»

وننظر فى ختام هذه الوصايا فإذا الله سبحانه وتعالى قرر أن هذا صراطه المستقيم وكل ماعداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله القويم الذى ارتضاه الله لعباده.

وقد جاءت هذه الوصايا نتيجة حتمية لما أثبتته البراهين القطعية والحجج الدامغة فى الآيات السابقة وما دلت عليه من حقيقة هذا التشريع وصدوره عن العليم بطيات النفوس، ودخائلها الخبير بما يصلحها ويفسدها ولذلك كان لها وقع النتائج بعد المقدمات والمقاصد بعد الوسائل والغايات بعد البدايات.

وكما انفردت هذه الوصايا نفسها بما لها من المكانة الكبرى فى السمو بحياة الفرد وحياة المجتمع انفرد الأسلوب الذى سيقت فى إطاره بمزيد من شواهد البلاغة وسحر البيان فى كلماتها ودلائلها وإشاراتها..

«قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم..» البدء بكلمة «قل» وإن كان كثيرا فى القرآن وتحظى منه سورة الأنعام بالنصيب الأكبر دون غيرها من السور إلا أنه فى هذه الوصايا العشر يأتى - كما قلت فى إطار النتيجة الحتمية لما تقدم من الحجج والبراهين.

و «تعالوا» دعوة إلى ارتفاع وعلو يراد لهم وتخليصهم من انحطاط هم فيه مع دلالتها على طلب المتكلم إقبالهم عليه وانضمامهم تحت لوائه فتتخذ وجهتهم ولا تذهب بهم الأهواء والسبل فى مناحى الغى والفساد وهو أسلوب يعطف القلوب

ويؤلفها ويشعرها بمعانى العطف والرحمة.

وصدق الله العظيم «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنتَ فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن»

«أتل» أقرأ وأقص عليكم وفى هذا التعبير إيحاء بثقة المتكلم فى تفهم المخاطبين لما سيلقيه عليهم من الوصايا وكأن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من مجرد التلاوة ليسمعوا ويفهموا ويعملوا بمقتضى ما سمعوه وما فهموه.

وهذا واضح لما تقدم من إيراد الأدلة القاطعة والحجج القوية حتى أصبحوا فى مقام الاقتناع التام، والفعل مجزوم بحذف حرف العلة لأنه واقع فى جواب الأمر «تعالوا» أو لأنه واقع فى جواب شرط مقدر أى إن تأتوا أتلُ.. «ماحرَّم ربكم عليكم» أى أقرأ وأقص عليكم ما حرَّمه ربكم حقا وعدلا لا تخرصا ولا ظنا ولا ادعاءا بل وحيا منه وأمرا من عنده و «ما حرم» منصوب بفعل التلاوة أى أتل الذى حرمه ربكم لا ماتدَّعون أنتم أنه حرَّمه بزعمكم..

لقد حرمه عليكم ربكم الذى له وحده حق الربوبية وهى القوامة والتربية والتوجيه والحكم بالأمر الصادر من الرب وحده وإذا كان الرب هو الذى يحرم فهو لايحرم بمقتضى ربوبيته الخيرة المحسنة إلا ما يخرج عن الفطرة السليمة، ويفسد العقول، ويشيع الظلم ويقطع الأرحام ويحدث العداوة والبغضاء بين الناس.

فإسناد التحريم إلى الرب مضاف إلى المخاطبين أدعى إلى امتثالهم لأمر ربهم وإذعانهم لحكمه وخضوعهم لمشيئته عن رضا وطمأنينة.

الوصية الأولى

«ألا تشركوا به شيئا» أى لا تجعلوا لله شريكا فى ألوهيته وربوبيته وسلطانه وحكمه ويجب عليهم ابتداء أن يعترفوا ويسلموا بألوهية الله وحده فى عقيدتهم وبربوبيته لهم وحده فى حياتهم لايشركون معه أحدا فى ألوهيته ولا فى ربوبيته ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى شئون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار وأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين وأنه المتصرف سبحانه فى شئون العباد حكما وتشريعا وتحليلا وتحريما.

وبذلك تتحقق الركيزة الأولى فى العقيدة التى ترجع إليها سائر التكاليف والفرائض وتستمد منها كافة الحقوق والواجبات، وتسْلَم لها آثارها الحتمية من تنقية الضمير من أوشاب الشرك وتنقية العقل من أوشاب الخرافة وتنقية المجتمع من التقاليد الجاهلية وتنقية الحياة من عبودية العباد لغير الله، وتكريس التوجه المطلق لله رب العالمين عقيدة وإيمانا وخضوعا وإذعانا وامتثالا وانقيادا، وتجردا وإخلاصا، وتوكلا وتسليما، وتحكيما وتفويضا..

والحديث عن الشرك بالله يقتضى توضيح بعض الأمور على الوجه التالى:

١ - إنكار الألوهية والربوبية وعدم الاعتراف والتصديق بإله قادر مدبر بيده الأمر كله يعد كفرا صريحا بالألوهية والربوبية وإنكارا لها ولا يسمى هذا شركا لأن الواقع فيه والعياذ بالله ينكر تماما الألوهية والربوبية بمعنى أنه يرفض وجود سلطة غيبية وراء

هذه المادة تدبر شئون الكون والحياة وبيدها ملكوت السموات والأرض تصريفا وتدبيرا وحكما وتشريعا.

وهذا الإنكار المطلق للألوهية يقتضى الاعتقاد بأن هذا الكون قديم بعناصره الأولى وأن مركباته وسيره ونموه تحصل بتفاعل هذه العناصر وبما فيها من القوى الطبيعية التى لا عقل لها، ولا علم لها، ولا حكمة لها، ولا هدف لها، ويقتضى أيضا أن هذا العالم لا يصل إلى العدم المطلق، وإنما يتقلب فى التحلل والالتئام، والاجتماع والافتراق والارتفاع والانخفاض من الأزل إلى الأبد بقواه المكتومة دون أن يكون له مدبر حكيم، مهيمن خبير، له السلطان المطلق فى إيجاده وفى إبقائه وفى إفنائه.

ومعلوم أن هذا كله باطل بالأدلة والبراهين كما درسنا فى كتب العقيدة والتوحيد.

وهذا النوع من الكفر الخالص والجحود المطلق لم يعرض له القرآن فى أكثر آيات التوحيد والإيمان لأنه ليس من فطرة الإنسان ولا مما يؤيده فيه شيء من ظواهر الكون وشواهد الحياة ومعالم الوجود.

٢- الشرك بالله الصريح المعلن بمعنى الاعتقاد فى وجود آلهة أخرى مع الله تشاركه ـ سبحانه ـ سلطانه وهيمنته وقيوميته وغير ذلك مما هو من خصائص الألوهية والربوبية فهم لاينكرون ألوهية الله وربوبيته ولا يجحدونها بل يعترفون بألوهيته وربوبيته ولكن لايمحضونها خالصة لله بل يشركون معه آلهة أخرى تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولذلك فإن القرآن كثيرا ما يحكى عن المشركين اعترافهم بألوهية الله وربوبيته «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله..» «ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله..» «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون» «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»

بل إنهم كانوا يتخذون هؤلاء الشركاء واسطة بينهم وبين الله يدنونهم منه ويقربونهم إليه «قل أفرأيتم ما تعبدون من دون الله.. قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى..»

وعلى هذا كانت دعوة الرسل موجهة إلى عبادة الله وحده وإلى محاربة الذين أشركوا معه غيره فيما هو من خصائص الألوهية باعتبار أن هذا الشرك أول المحرمات وأكبر الكبائر.

وقد تنوعت الشركاء عند المشركين فى جميع الأعصار وكافة الأمصار حسب تنوع الأسباب التى أفسدت عليهم تصورهم لمعني الألوهية والعبادة وأوقعتهم في الشرك والضلال وطمست عليهم سبيل الفطرة التى فطر عليها الإنسان فعبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين وعبدوا المرأة والبقرة والعجل وعبدوا الشمس والقمر والنجوم والنار واتخذوا أصناما وأوثانا يصنعونها بأيديهم يتقربون إليها ويقدسونها ويسألونها قضاء الحاجات ويخصونها بالتضرع والابتهال..

واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو

ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى فهو يهدين، والذى هو يطعمنى ويسقين.. وإذا مرضت فهو يشفين، والذى يميتنى ثم يحيين، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين.

٣- الشرك الخفى غير المقصود ولا هو فى بال صاحبه ولا خاطره ولا هو منكر للألوهية ولا مشرك فيها مع الله أحدا غيره، ولكن ربما تقع منه أمور يفهم منها أنه لايمحض الألوهية ولا يخلصها لله وأنه ربما ارتكن إلى غير الله فى أمر هو من أخص خصائص الألوهية والربوبية ولكن دون قصد منه أن يتخذ مع الله شريكا بل لم يدر ذلك بخلده على الإطلاق.. وذلك كأن يطوف بضريح نبى أو ولى ويوجه الدعاء لهما لا إلى الله بما يطلبه ويتمناه وكان لزاما عليه أن يتوجه بدعائه إلى الله مباشرة.. وكأن يتمادى إنسان فى تعظيم أحد من الناس وإجلاله والتذلل له خوفا من بطشه أو طمعا فى نواله.. حتى لكأنه قد نسى أن للإنسان ربا خالقا رازقا وقادرا على كل شىء وأن كل شىء قد جرى به أمر الله وقضاؤه وقدره وأن أحدا كائنا من كان لايرد لله مشيئة ولا يخالف له إرادة.

مثل هذه الأشياء تحسب على الإنسان وتؤخذ عليه باعتبارها دليل ضعف فى الإيمان ووهن فى العقيدة ومنحدرا خفيا ومنزلقا خطرا قد يؤدى مع التمادى والتهاون إلى مالا تحمد عقباه من شبهة الشرك بالله.

بل إن كثيرا من العلماء الأجلاء أهل البصر بكتاب الله

وشريعته يرون أن تغليب الإنسان هواه على طاعة ربه شرك بالله «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»

ويرون أيضا أن الإعراض عن شرع الله وحكمه والالتجاء إلى غيره فيهما شرك بالله .. وأن الرياء فى العبادات شرك بالله.. والاستعانة والخضوع للجبارين شرك بالله.

وهكذا يتضح المقصود من إطلاق لفظ الشرك فى هذه الأمور وغيرها حتى لايختلط علينا الأمر فى مجال العقيدة والإيمان وهو أخطر مجال فى كيان الإنسان وحياة الأمم والشعوب.

فقد ورد فى الصحيحين من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لايشرك بالله شيئا من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر»

وفى بعض الروايات أنه قال فى الثالثة «وإن رغم أنف أبى ذر» وفى بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ماكان منك ولا أبالى، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة مالم تشرك بى شيئا، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك»

ولهذا شاهد فى القرآن الكريم إذ يقول الله جل فى علاه «إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»

صدق الله العظيم.

حقيقة نحن لا نريد أن نطمع الناس فى المغفرة والعفو مهما ارتكبوا واقترفوا ولكننا نريد أن نفتح أبواب التوبة والقبول أمام المخطئين من البشر فذلك خير من أن نيئسهم من رحمة الله، ثم إن من أخطر الأمور الحكم على الناس بالكفر والشرك هكذا ببساطة ويسر دون تثبت ويقين وهل كشفت الحجب عن القلوب حتى يحكم الناس على قائل لا إله إلا الله بكفر أو شرك.. ذلك هو الضلال البعيد.

تبقى بعد ذلك مسألة تتعلق بالتخريج النحوى لقوله تعالى: «ألا تشركوا به شيئا» فقد كان المقتضى أن يكون المذكور واحدا من المحرمات لأن صدر الآية «قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم...» والمحرم الشرك بالله وليس النهى عن الشرك به ..

وللعلماء فى ذلك أقوال:

١ - قال ابن كثير فى تفسيره إن فى الكلام حذفا يدل عليه السياق وتقديره: وأوصاكم «ألا تشركوا به شيئا» ولهذا قال فى آخر الآية «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون»

٢ - والزمخشرى فى الكشاف يرى أنّ أنْ» فى «ألا تشركوا» مفسرة لفعل التلاوة وهو «أتل» المعلق بقوله تعالى «ماحرم ربكم» ولا للنهى وما بعده منهى عنه محرم كله كالشرك وما عطف عليه مما دخل عليه حرف النهى أما الأوامر التى وردت مع النواهى بعد

فعل التحريم فمعلوم أن التحريم راجع إلى أضدادها بحكم السياق وهى عقوق الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل فى القول ونكث عهد الله.

٣- والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت يرى أن للآيات فى الإرشاد إلى المحرم طريقين:

أحدهما: أن يذكر المحرم نفسه مقترنا بأداة النهى والتحريم وذلك حيث يكون الضرر مترتبا على فعله ومنه فى آياتنا هذه: الشرك بالله وقتل النفس والأولاد، وقربان الفواحش ومال اليتيم.

وثانيهما: أن يذكر المحرم بذكر مقابله وهو الذى يترتب الخير على فعله ومنه فى الآيات: الإحسان إلى الوالدين، وإيفاء الكيل والميزان، والعدل فى الأقوال، والوفاء بالعهود.

وقد جاءت كل وصية من هذه الوصايا بالوجه الذى يدل على مناط الخير فيها، فمناط الخير فى الأول ترك المحرمات فلا شرك ولا قتل للأولاد ولا قربان للفواحش ولا قتل للنفس ولا قربان لمال اليتيم إلا بالتى هى أحسن. فذكرت منهيا عنها جميعها.

ومناط الخير فى الآخر فعل ما يقابل المحرم : الإحسان والإيفاء والعدل فذكرت مأمورا بها.

وهكذا يكون الأسلوب الحكيم الذى يتحسس موضع الحاجة ومنشأ الخير فى التكاليف.. ولعلنا بهذا البيان نستريح ونريح من عناء التخريج الصناعي واللفظي الذي شغل الناس وشغلنا عن روح القرآن وهدايته.

الوصية الثانية

وبالوالدين إحسانا: أى أوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا أى أن تحسنوا إليهم إحسانا والأمر بالإحسان نهى عن العقوق والإساءة، وقد جاءت الوصية هنا بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة تركيزا على المطلوب الذى هو الأهم وسموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين وكأن الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع من الإنسان حتى يحتاج إلى النهى عنها، وكما قلت فإن المطلوب هو الإحسان إلى الوالدين وليس مجرد ترك الإساءة إليهما المطلوب تقديم الخير والنفع وبذل الجميل للوالدين حتى تظل القلوب متآلفة والأواصر متينة والأسرة مترابطة وأبناء اليوم المحسنين إلى آبائهم هم آباء الغد الذين يحسن إليهم أبناؤهم إن شاء الله تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والإحسان يتعدى بحرفى الباء وإلى فيقال: أحسن به وأحسن إليه وبينهما فرق واضح لأن التعدى بالباء يفيد اتصال الفعل بمدخول الباء على سبيل الإلصاق والامتزاج دون بعد أو انفصال أما التعدى بإلى فيفيد وصول الفعل إلى مدخول إلى على سبيل الغاية ولو كان منه على بعد أو كان بينهما واسطة، ولا ريب أن مدلول الإلصاق فى هذا المقام أبلغ فى تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين.

ومن هنا لم يعد الإحسان بالباء فى القرآن إلا حيث أريد

ذلك التوكيد ففى مقام الوصية بالوالدين جاءت على هذا النحو فى سورة البقرة.. «وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا» وفى سورة النساء «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا» وفى سورة الأنعام فى الآية التى معنا وفى سورة الإسراء ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربّيانى صغيرا﴾

ونلحظ فى هذه الآيات الكريمة أن الأمر بالإحسان بالوالدين جاء تاليا فى الذكر للأمر بعبادة الله وحده أو النهى عن الإشراك به وفى هذا رفع لمقام الأمومة والأبوة وإشعار بأن الإحسان إليهما نابع من إيمان الإنسان بربه وعبادته إياه.

وقد جاء أيضا فى القرآن الكريم ما يشير إلى مزيد عناية بأمر البر بالوالدين إذ جاء ذلك بأسلوب الإيصاء الدال على العناية التامة والاهتمام البالغ بأمر الموصى عليه وأن فى العمل بالوصية مايعود بالخير على الموصى نفسه وهذا الأسلوب أقوى من البعث على الامتثال والطاعة من أسلوب الأمر والتكليف تأمل قوله تعالى فى سورة العنكبوت «ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما» وفى سورة لقمان «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا» وفى سورة الأحقاف «ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا

حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين»

إنها عناية إلهية بالغة بحق الوالدين لاشك فى ذلك مرجعها إلى ما للوالدين من مكانة ومنزلة ودعامة فى بناء الأسرة وحفظ كيانها والتقاء الأبناء جميعهم فى ظلالها التقاء التراحم والتعاطف والاحترام والتقدير والاستقرار والسعادة ويمتد ذلك حتما إلى الأمة بأسرها..

وإذا كانت الوصية بالوالدين لم يقابلها فى القرآن الكريم وصية بالأبناء بمثل هذا الاهتمام البالغ فما ذلك إلا لأن الاهتمام بالأبناء مركوز فى طبيعة البشر وغريزة الأبوة مدفوعة دفاعا تلقائيا نحو الأبناء رعاية وتربية وقوامة وإصلاحا دون حاجة إلى أكثر من الأيصاء والتوجيه بل إن فى البر بالوالدين صلاحا للذرية وفتحا لينابيع الهداية والرعاية عليهم أجمعين، فضلا من الله ومِنّة وجزاء على إحسانه بالإحسان.

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أوصى كثيرا بالوالدين خيرا وإحسانا فلا يجوز للأباء أن يتخذوا من هذه الوصايا تنكيلا بأبنائهم وجورا عليهم ووقوفا أمامهم فى كل خير يريدونه وعلى الأبناء ألا يطيعوا الوالدين فى أى شىء تقع فيه المخالفة مع شرع الله وأوامره على أن يكون ذلك بلطف ومعروف تأمل قول الله تعالى: «وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا»

الوصية الثالثة

«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» تتضمن النهى عن قتل الأولاد من الفقر أو خشية الفقر أو خشية العار وذلك أنهم كانوا يئدون البنات خشية العار والفقر لأن الفتاة لم تكن تعمل ولا تتكسب فى أيامهم وربما كان أهلها فقراء فتقع فى سوء يجلب عليهم العار والفضيحة وربما قتلوا أيضا بعض الذكور خشية الافتقار ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم؟

قال: أن تجعل للّه نداً وهو خلقك، قلت ثم أى؟

قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت ثم أى؟

قال: أن تزانى حليلة جارك ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون..» أخرجه الشيخان عن عبد الله ابن مسعود.

وجاء أيضا فى سورة الإسراء قوله تعالى: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كا خطئا كبيرا»

كما جاء فى آيات كثيرة نهى شديد على من يقتلون أولادهم باعتبار هذا الفعل تصرفا فاسدا يتمثل فيه ضعف النفس

وتأثرها بتنزيين الشياطين إياه ووسوستهم به للناس وتصويره بأنه عمل صالح يتقى به الإنسان غائلة الفقر التى يجلبها الإنفاق على الأولاد ويتقى به جلب العار والمذمة.

ومع كونه تصرفا فاسدا فإنه أيضا تصرف يؤدى إلى الخسران العظيم: خسران لعاطفة الأبوة والرحمة والشفقة وخسران لكل ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان من نعمة الولد والنسل فى حياته وبعد مماته من العزة والنصرة والسرور والزينة وامتداد الحياة والأثر والمعونة له فى حياته، والدعاء له بعد مماته، والأجر والثواب من الله تبارك وتعالى إذا أحسن أداء هذه الأمانة..

اقرأ قول الله تعالى: «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين»

ولا يزال بعض الناس إلى يومنا هذا تتملكهم الشياطين فتزين لهم قتل أولادهم على سبيل الإجهاض بغير سبب قوى يقول به الطبيب المسلم الثقة من إنقاذ لحياة الأم أو تخلص من محنة جنين مشوّه لا يرجى له خير، أو على سبيل إلقائه فى الطريق بعد ولادته تنصلا من مسئوليته وتخففا من عبئه، أو على سبيل القتل المعنوى بإهمال تربيته والتقصير فى رعايته وتعريضه لغائلة التشرد والضياع.

والآية تلفت أنظار العباد إلى أن الرزق بيد الله فهو سبحانه الرزاق ذو القوة المتين وأن كل شىء فى هذه الحياة قد أجراه الله بقدر وأنه ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها.

وقد جاء هذا الضمان الإلهى فى أسلوبين مختلفين أحدهما فى هذه الآية التى نشرحها من سورة الأنعام «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» والثانى فى سورة الإسراء «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم»

وفى كلا التعبيرين من الأسرار البلاغية ما فيه، ففى آية الأنعام التى معنا كان قتل الأولاد بسبب الفقر الحاصل فعلا «من إملاق» والإملاق هو الفقر، والمناسب لهذه الحالة قوله تعالى «نحن نرزقكم وإياهم» تطمينا لهم بضمان رزقهم أولا وأولادهم ثانيا تبعا لهم، وفى آية الإسراء كان قتل الأولاد بسبب خشية الفقر الذى يمكن أن يحدث حين يضعف الوالدان ويعجزان عن الكسب وكان المناسب لهذه الحالة الثانية قوله تعالى «نحن نرزقهم وإياكم» تطمينا لهم بضمان رزق الأبناء الذى يشغل بالهم ويعانون الهم بسببه وضمان رزقهم هم أيضا، ففى كل حالة جاء التعبير المناسب لها بدقة بالغة وبيان رائع.

وبعد فإن ذوى الدراية والفطنة من العلماء يثيرون موضوعين هامين يتعلقان بمضمون هذا الجزء من الآية الكريمة الخاص بالنهى عن قتل الأولاد.

أحدهما: موضوع إجهاض الحامل وإسقاط الحمل.

ثانيهما: القصاص من قاتل ولده.

أما عن الموضوع الأول فقد اتفقت كلمة الفقهاء على أن إسقاط الحمل بعد نفخ الروح فيه حرام لايحل لمسلم أن يفعله بغير مبرر قوى متيقن كما سبق أن بينت لأنه جناية على حى، ولذلك

وجبت فيه العقوبة أما إسقاطه قبل نفخ الروح فزعم فريق أنه جائز توهما منه أنه لاحياة فيه فلا جناية فى إسقاطه ولا حرمة والتحقيق أنه حرام، لأن فيه حياة محترمة، هى حياة القبول والاستعداد التى قال فيها الإمام الغزالى «إنه جناية على موجود حاصل، وأن أول مراتب الوجود أن تقع المادة فى المحل وتختلط بالبويضة وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية، وتعظم الجناية كلما انتقلت المادة من طور إلى طور حتى تصل إلى منتهاها بعد الانفصال حيا»

وجاء فى كتب «الحنفية» لبعض فقهائهم: «ولا أقول بالحل إذ المُحْرِم لو كسر بيض الصيد ضمنه لأنه أصل الصيد، فلما كان يؤاخذ بالضمان فى الصيد، فلا أقل من أن يلحق الإثم فى الجنين «وقالوا» إن الماء بعد ما يقع فى الرحم مآله الحياة فيكون له حكم الحياة»

ومن هنا وجب حمل القول بالإباحة على حالة ترتب الضرر الفادح كموت الأم إذا لم تسقط الجنين ..

ومن هنا أيضا نرى أن علماء الشريعة يرون كما يرى الطب أن مادة التلقيح فيها حياة وأنهم يقدرونها ويعتدون بها ويرتبون عليها الآثار.

أما عن الموضوع الثانى: فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الوالد لا يقتل بولده، واستدلوا بحديث يروى فى هذا المقام وهو «لا يقاد والد بولده» أو «لا يقتل والد بولده» وكذلك استدلوا بأن عمر بن الخطاب لم يقتل الوالد بالولد مع حضور الصحابة ولم يخالفه أحد منهم.

وذهب جماعة منهم الإمام مالك إلى أنه متى تعمد قتله، وخلا القتل عن الشبهة قتل به لعموم آيات القصاص.

يقول ابن العربى: «سمعت شيخنا فخر الإسلام أبا بكر الشاشى يقول: فى النظر لا يقتل الأب بابنه لأنه سبب وجوده فكيف يكون هو سبب عدمه؟

وهذا يبطل بما إذا زنا بابنته فإنه يرجم وكان سبب وجودها، ثم أى فقه تحت هذا، ولم لايكون الولد سببا فى عدم أبيه إذا عصى الأب الله فيه؟ ثم قال: «وقد تعلقوا بحديث باطل وهو «لا يقاد والد بولده» والراجح هو مذهب القائلين بالقصاص متى ثبت تعمد القتل وقصده ولم تقم شبهة كما هو معروف لأن آيات القصاص عامة لا يخصصها إلا متواتر أو مشهور.

والحديث الذى رووه إن صح فهو آحاد لم يشتهر ويرى فيه الشافعى أن طرقه كلها منقطعة، وأما آيات الوصية بالوالدين فإنها ليست حجة فى إسقاط القصاص، وكون الوالد سببا فى وجود الولد فلا يصح أن يكون الولد سببا فى عدمه هى مجرد جدل شكلى لا قيمة له فى تبيين الحق وإظهاره، وأما حكم عمر بعدم القصاص فلعله كان لشبهة قائمة رآها والقصاص يندرىء بالشبهات.

الوصية الرابعة

«ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن»

الفواحش: كل ما أفحش أى تجاوز الحد وإن كانت أحيانا تختص بنوع منها هو فاحشة الزنا ولعل هذا هو الموافق لسياق الآية الكريمة لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها فتكون هذه واحدة منها بعينها وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال اليتيم فاحشة والشرك بالله فاحشة الفواحش، فتخصيص الفواحش هنا بفواحش الزنا.

وقد جاءت كلمات «فاحشة وفحشاء وفواحش» فى كثير من آيات القرآن عامة لاتختص بنوع معين أو فعل خاص مما عرفت شناعته وقبحه، ومن ذلك قوله تعالى «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وقوله سبحانه «إن الله لايأمر بالفحشاء» «قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن» يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة»

وإذن فهذه الكلمات فى عمومها ليست خاصة بالاعتداء على العرض وإن كان قد أريد منها فى بعض إطلاقاتها هذا المعنى نظرا لشدة قبحه واستهجان النفوس له وليس هذا لأنها خاصة به ولا تطلق على غيره، وليس فى كل ما تطلق عليه كلمة فاحشة أبشع ولا أفحش من تلك الرذيلة التى تجعل أفراد الإنسان الذين كرمهم الله بقوله «ولقد كرمنا بنى آدم» أشبه بالحيوانات التى لا تعرف للشرف مكانة ولا للعرض قيمة ولا للأنساب فضلا وكرامة..

وقد كان لفاحشة الاعتداء على العرض فى الجاهلية شيوع ونظام وكان الوجهاء والرءوس لايرتكبونه إلا سرا ونادرا ويستقبحونه علانية.

أما أراذلهم وأدنياؤهم فقد كانوا يألفونه ويرتكبونه فى بيوت معروفة توضع عليها أعلام تميزها عن بيوت الشريفات الحرائر لذلك وقف الإسلام من هذه الجريمة وقفة غضبة وشدة وحذر من التهاون فيها وأمر بتطبيق العقوبة الخاصة بها بلا رأفة ولا رحمة حماية للمجتمع ووقاية للإنسان وحفاظا على الأعراض والأنساب.

وجاءت الفواحش بصيغة الجمع لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها فالتبرج والتهتك والاختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات والضحكات المتسمة بالإثارة والفجور ووسائل الإغراء والتزين والإستثارة كلها فواحش تؤدى إلى الوقوع فى الزنا ومنها ماهو ظاهر معلن مكشوف ومنها ماهو باطن مستتر مخبوء فى الضمائر والنوايا والوسائل والأساليب وكلها فواحش عواقبها وخيمة ونتائجها مهلكة ولذا جاء النهى القرآنى عنها مقرونا بالاقتراب «ولاتقربوا» أى أن مجرد الاقتراب منها منهى عنه سدا للذرائع واتقاء للانهيار التام إزاء مغرياتها ولذلك كان التبرج حتى بالتعطر فى الطريق عطرا فواحا حراما وكانت الملابس المثيرة والحركات المثيرة والضحكات المثيرة والإشارات المثيرة مرفوضة وممنوعة تماما فى الحياة الإسلامية النظيفة، فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا فى المقاومة فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح «ألا يعلم من خلق وهو

اللطيف الخبير»

فإذا وقعت الفاحشة بعد ذلك كانت العقوبة الرادعة التى قررها الشارع الحكيم وهى عقوبة معلنة يشهدها الجميع لتكون عبرة لمن تسول له نفسه الوقوع فيها «الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»

مع مايترتب على ذلك من وصمة العار والعزل عن جماعة المؤمنين جاء فى الصحيحين عن ابن سمعود رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»

وفى الصحيحين أيضا قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير منى من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»

ولعل من واجبنا أنه ننبه ونحذر من هؤلاء الذين يزينون للناس الفواحش والشهوات ويطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة و «الفيلم» وترك الحبل على الغارب للشباب والشابات اختلاطا وترفيها فى المعسكرات والرحلات وما إليها... ونقول لهم اتقوا الله فى أبنائكم وبناتكم... اتقوا الله فى أعراضكم.. اتقوا الله فى أمتكم وإسلامكم فقد أضحى الشرف عزيزا غريبا تضرب به الأمثال لندرته وكأنه الشذوذ فى قاعدة الخصال المسيطرة والخلائق الشائعة من الخسة والدناءة والرذيلة.

الوصية الخامسة

«ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق»

نهى سبحانه وتعالى عن قتل النفس التى حرَّم الله قتلها إلا بالحق أو التى عصمها الله عصمة طبيعية بمقتضى منزلة الإنسان ومكانته وكرامته إلا بالحق، فمعنى «حرَّم الله» يحتمل التحريم التشريعى الذى نزلت به الشرائع السابقة من مثل ما جاء فى التوراة من أن القتل أكبر الذنوب وأعظم الجرائم عند الله، وجاء فى القرآن عما كتبه الله على بنى اسرائيل «أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا»

وعلى هذا يكون المقصود بقوله تعالى «التى حرم الله» التنبيه والإشارة إلى أن حرمة النفس البشرية قديمة فى الشرائع السماوية، وأنها شرع عام لم يخص أمة دون أمة، ولا جيلا دون جيل وإنما هو شرع الله منذ عرف أهل الأرض تشريع السماء.

كما يحتمل تحريم الله للنفس معنى العصمة الطبيعية التى ثبتت للإنسان بمقتضى خلقه نوعا عاقلا مفكرا عاملا فى الحياة، خليفة فى عمارة الكون فحياة هذا الإنسان ذات قيمة ومكانة وذات رسالة وغاية ولا يحق لأحد الاعتداء عليها بغير حق.

وقد اتفقت جميع الملل والنِّحل منذ بدء الخليقة على أن قتل النفس عمدا بغير حق يبرره، جريمة منكرة لايقرها شرع ولايتقبلها وضع ولايستسيغها اجتماع منذ أول جريمة قتل وقعت على الأرض وراح ضحيتها «هابيل» إذ قتله أخوه «قابيل» وكان

الخسران والندم «واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطتَ إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنىّ أخاف الله ربَّ العالمين، إنىّ أريدُ أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوّعت له نفسه قتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.

فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليُرِيَه كيف يُوارى سوْءة أخيه قال ياويلتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأوارِىَ سوءة أخى فأصبح من النادمين.

من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا»

وقد شدّد الإسلام النكير على هذه الجريمة وكان من أصرح وأقوى ماجاء فى حكمها الأخروى قوله تعالى فى سورة النساء:

«ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنّم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما، وكان مجىء هذا الحكم مطلقا هكذا مدعاة إلى القول بأن توبة القاتل غير مقبولة متى كان المقتول مؤمنا.

وقد روى هذا الرأى عن ابن عباس وزيد بن ثابت وغيرهما من الصحابة كما روى أن آية الفرقان المكية «إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا» منسوخة بالآية المدنية «ومن يقتل مؤمنا

متعمدا» وعقوبتها الدنيوية الأصلية هى «القصاص» بأن يقتل القاتل المتعمد، ومع هذه العقوبة الأصلية عقوبة أخرى تبعية وهى «حرمان القاتل من ميراث المقتول إذا كان بينهما سبب من أسباب الميراث»

وقوله تعالى «إلا بالحق» بيان بالحالة التى تسلب فيه عن النفس حرمتها فيحل قتلها حينئذ وذلك يكون بقتل النفس عمدا فيقتل القاتل قصاصا لقوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى» وقوله تعالى «ولكم فى القصاص حياة ومحاربة الله بالإفساد فى الأرض لقوله تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفَوْا من الأرض» والزانى المحصن فإنه يرجم بالحجارة حتى القتل، والتارك لدينه المرتد عن إسلامه فإنه لايقبل منه إلا الإسلام أو القتل.

فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بأحدى ثلاث: الثيّب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

وروى أبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها بإحدى ثلاث خصال: زان محصن يرجم، ورجل قتل متعمدا فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض.

وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو

محصور: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل بغير نفس، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا منه بعد إذ هدانى الله، ولا قتلت نفسا، فبم تقتلوننى؟

وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهَد وهو المستأمَن مِنْ أهل الحرب.

فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما»

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا» رواه ابن ماجة والترمذى، وقال حسن صحيح.

وأشير هنا إلى مسألة مهمة وهى أن حرمة النفس الإنسانية أصل متيقن بنصوص قطعية لا شبهة فى ثبوتها ولا فى دلالتها وأن مثل هذه الحرمة لايمكن أن تزول إلا بسبب متيقن مقطوع بورود النص فى أنه مسقط للحرمة ومقطوع بدلالة النص على ذلك.

وعلى ذلك فالأسباب غير المتيقنة والنصوص غير القطعية لا تسقط حرمة النفس ولا تبيح قتلها وإن رأى العلماء أنها تبيح وهذا هو ما تقضى به الأصول البينة الواضحة للشريعة الإسلامية.

وما دمنا بصدد قتل النفس بغير حق كان لزاما علينا أن

نؤكد أمرا على درجة كبيرة من الخطورة وهو قتل النفس على سبيل الانتحار فهو داخل فى مجال النهى والتحريم كمن قتل غيره تماما.

ففى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم «من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسم فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو مترد فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا» ولا يحسبن أحد أن نفسه ملك له إن شاء أبقاها وأحياها وإن شاء أزهقها وقتلها وأنه حر فى شأن نفسه.. لا يحسبن أحد ذلك لأن النفوس ملك لبارئها وخالقها والحياة نعمة منه سبحانه يمنحها ويقبضها متى شاء هو ومتى أراد وما على الإنسان إلا الخضوع لمشيئة الله وإرادته.

ومسألة أخرى نود أن نلفت إليها الأنظار أن إباحة النفس وإسقاط حرمتها لسبب من الأسباب القطعية إنما هى إباحة لولى الأمر الحاكم الذى يناط به تنفيذ أحكام الله وشرائعه فهو الذى ينفذ القتل قصاصا وهو الذى يتعامل مع المرتدين عن الإسلام بحكم الله وشرعه وليس لأحد غير الحاكم أو من يقوم مقامه أن يتولى مباشرة هذه الأمور بنفسه ولو كان ولى المقتول حفاظا على الحق والعدل والنظام وقياما بواجب التحرى والتيقن فى مثل هذه الأحوال.

وقد يباح للأفراد فى حالة وقوع الاعتداء عليهم أو على

أعراضهم أو أموالهم أن يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم على أن يكون ذلك فى حال التلبس بالجريمة وألا يكون هناك من سبيل للدفاع غير القتل.

«ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» أى هذا مما وصاكم به ربكم رجاء أن تعقلوا وتتدبروا أوامر الله ونواهيه، وهذا التعقيب يجىء وفق المنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله تقريرا لوحدة التشريع من مصدره الرئيسى الذى يملك حق الأمر والنهى فى الناس ويجعل لهذا الحق وزنه وقدسيته فى نفوس العباد لصالحهم وخيرهم.

وفى هذا التعقيب كذلك الإشارة إلى التعقل والعقل يقتضى أن تكون السلطة الآمرة الناهية التى يخضع لها العباد لله وحده الخالق الرازق المهيمن المدبر الحكيم العليم ببواطن الأمور المتصرف فى ملكوت السموات والأرض بقدرته ومشيئته وفق حكمته، ويكثر فى السياق القرآنى مجىء النهى عن الشرك مقترنا بالأمر بالإحسان إلى الوالدين ومصحوبا بالنهى عن الزنا وقتل النفس لما بينها من تجانس فالنواهى فيها جميعها منصبة على محاظير ترتبط ارتباطا وثيقا بمعنى القتل، ففى الشرك بالله قتل للفطرة وفى عقوق الوالدين قتل للمروءة والوفاء والانتماء وفى الزنا قتل للجماعة بإشاعة الفاحشة فيها وخلط الأنساب وفى قتل النفس قتل صريح لإنسان وقتل معنوى لعلاقات المحبة والتراحم بين الناس وإزهاق لروح الطمأنينة والأمان.

الوصية السادسة

«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده»

تحذير من مجرد الاقتراب من مال اليتيم إلا بما يحفظه له ويثمره وينميه من غير تعريضه للضياع والتلف بسوء تصرف أو بتجميد يؤدى إلى نفاده.

وما ذلك إلا لأن اليتيم ضعيف لصغر سنه وعدم اكتمال رشده وفقده للأب الحانى الحامى القائم على أمره بالتربية والرعاية والتوجيه.

ومن ثم يقع عبء ضعفه على الجماعة المسلمة قوامة ورعاية وبرا وعطفا على أساس التكافل الاجتماعى الذى يعد قاعدة وركيزة فى النظام الإسلامى.

وقد كثرت التوجيهات الواردة فى القرآن والسنة بشأن رعاية اليتيم مما يشير إلى ضيعة اليتيم فى المجتمع الجاهلى وإهمال أمره أو العدوان على أمواله ..

ففى القرآن الكريم ما يفيد أن إهمال اليتيم وازدراءه يعد علامة من علامات التكذيب بيوم الدين «أرأيت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدُعُّ اليتيم» «فأما اليتيم فلا تقهر».

وعن ابن عباس قال لما أنزل الله «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن» و «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما

يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا» انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشىء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم»

قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»

(رواه أبو داود عن ابن عباس)

ولعلنا ندرك سر التعبير القرآنى فى قوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم) فهو كما قلت نهى عن مجرد الاقتراب وما ذلك إلا لأن مال اليتيم على الخصوص تتعلق به أطماع الناس وشراهتهم له لسهولة الحصول عليه وانعدام من يدافع عنه ويعنى بالحفاظ عليه.

ولذا فقد كانت هذه الآيات الواردة فى شأن اليتيم أساسا لقانون المجالس الحسبية التى وكل إليها إقامة الأوصياء على اليتامى ومحاسبتهم على تصرفاتهم فى الأمور التى أقيموا عليها وكذلك الحال مع السفهاء الذين فقدوا الرشد...

وقوله تعالى: «حتى يبلغ أشده» بمعنى أن من يتولى أمر اليتيم عليه ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم حتى يسلمه ماله كاملا ناميا عند بلوغه أشده أى اشتدت قوته الجسمية والعقلية.

وهناك خلاف حول بلوغ الأشد: فعند الشعبى ومالك بلوغ الأشد بالاحتلام وعند أبى حنيفة خمسة وعشرون عاما وعند السدى ثلاثون وعند بعضهم أربعون وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معا بدون تحديد، ولعل أنسب الأقوال قول أبى حنيفة.

الوصية السابعة

«وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفسا إلا وسعها»

أمر بإيفاء الكيل والميزان وإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء فى المبادلات التجارية بين الناس فى حدود طاقة التحرى والإنصاف وسياق الآيات يربطها بالعقيدة لأن المعاملات فى الإسلام مرتبطة بالعقيدة أوثق ارتباط، والتشريع فيها مستمد من حكم الله الذى يؤمن به العبد ويسلم إليه الأمر كله.

فليس هناك فصل بين العقيدة والقواعد والأصول التى تحكم المعاملات وهذه هى عبقرية الإسلام وتفرده من بين سائر الأديان.

والطمع فى الأموال عن طريق الكيل والميزان علة قديمة مزمنة ابتيلت بها البشرية منذ عرف البيع والشراء.

وقد قص الله سبحانه وتعالى علينا من أنباء الأمم أنه أهلك قوم شعيب بما تفشى فيهم من الظلم بأكل الأموال عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم قال تعالى فى سورة الأعراف: «وإلى مدين أخاهم شعيبا، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها»

وتأمل كيف يأتى النهى عن الإفساد فى الأرض وقد هيأها الله بعناصر الخير والصلاح بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان.

وفى سورة الشعراء: «كذَّب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين»

وفى القرآن الكريم سورة خاصة ترشد إلى عقوبة هؤلاء المنقصين لحقوق الناس فى الكيل والميزان، يقول تعالى فى سورة المطففين «ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين»

وفى كتاب الجامع لأبى عيسى الترمذى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان «إنكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم»

وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين بهما هلكت القرون المتقدمة: المكيال والميزان.

وقوله تعالى: «لا نكلف نفسا إلا وسعها» أى من اجتهد فى أداء الحق وأخذه فلا حرج عليه إن أخطأ بعد استفراغ وسعه فهى ترخيص فيما لايملك الإنسان ضبطه فى الزيادة أو النقصان رفعا للحرج ونفيا للعسر، وهذه قاعدة لها شأنها العظيم فى التشريع الإسلامى ولها آثارها الواضحة فى العبادات والمعاملات.

الوصية الثامنة

«وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى»

يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال على القريب والبعيد ولكل أحد فى كل وقت وفى كال حال، والقول وإن كان ظاهره فى المتعارف العام الكلام الذى ينطق به الإنسان إلا أنه فى واقعه يجرى مجرى الأفعال والألفاظ وكل مايدور فى النفس من معان تعلن بالقول ويتصل أثرها بالحياة، فالشاهد يشهد معبرا عما فى نفسه، والحاكم يصدر حكمه معبرا عما فى نفسه، والفاعل يصدر فعله معبرا عما فى نفسه، وإن لم يكن ذلك كذلك فلا أقل من أن يلحق غير القول بالقول ليشمل العدل الأقوال والمعانى النفسية والأفعال، والعدل فى الأصل معناه التسوية وهى تشمل التسوية بين الناس فى إعطاء الحقوق وكف الأذى، والتسوية بين الأقوال والوقائع، والتسوية بين الأقوال وما فى النفس من معان والتسوية بين الحكم وما تثبته البينة، والتسوية بين التصرفات والأفعال وما تقضى به الأحكام والشرائع.

ومعنى هذا أن العدل هو عماد الخير والصلاح وعماد النظام وتمام الملك والسلطان، وهو غاية الغايات، وأساس المكرمات فى سائر الحالات.

أما قوله تعالى «ولو كان ذا قربى» فإنه يعنى أنه لو كان المقول له أو عليه فى شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل فما ينبغى أن يزيد فى القول أو ينقص كقوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا

كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» والقرآن بذلك يعرض إلى هذه الصلات التى من شأنها أن تصرف الناس فى أعرافهم وعاداتهم عن العدل ويحذر من مغبة الانقياد لها ويحث على مكافحتها وتخليص النفس من قيودها، ومراقبة الله فيها.

الوصية التاسعة

«وبعهد الله أوفوا»

قال ابن جرير: يقول: وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله وذلك هو الوفاء بعهد الله، ولله مع عباده عهود ومواثيق يجب الوفاء بها وعدم التخلى عنها أو التنصل منها وأعمها العهد الذى أخذه على الناس جميعا أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه، وأن يقوموا بما تعاقدوا عليه من ارتباطات والتزامات على أساس من أحكام الله وشرعه، وأن يبين العلماء منهم ما علموه وفهموه من شئون الدين للناس بغير تحريف أو تزييف أو كتمان.

تأمل قوله تعالى: «ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم»

وقوله تعالى: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى...»

«ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون»

يقول تعالى: «هذا أوصاكم به وأمركم به، وأكد عليكم فيه لعلكم تذكرون أى تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه، والذكر ضد الغفلة والقلب الذاكر غير الغافل والعبد الذاكر يذكر عهد الله كله ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها وإنما جاء بالذكر هنا فقال:

«لعلكم تذكرون» لمكان العهد والوفاء به فذكر العهد مع الله يؤدى إلى الالتزام به في قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربى وفى توفية الكيل والميزان بالقسط وفى اجتناب القرب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن وفى اجتناب قتل النفس بغير حق وقبل ذلك كله فى توحيد الله وعدم الشرك به وجاءت الإشارة بالبعد «ذلكم» للدلالة على بلوغ المدي فى الأهمية.

الوصية العاشرة

«وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»

والصراط المستقيم دين الله وشرع الله وحكمه ومعناه فى الأصل الطريق الذى لا التواء فيه ولا انحراف ولا هوان فيه ولا عثرات وإنما هو معبّد مذلل ممهد أقرب ما يصل به الإنسان إلى مقصده دون بطء أو تعويق ولما كان شرع الله فى الوصول إلى غايته بهذه المثابة أطلق «الصراط المستقيم دلالة عليه وإشارة إليه»

وقد ورد هذا التعبير كثيرا فى القرآن الكريم وجعل عنوانا على شرع الله ودينه وأضيف تارة إلى الله وتارة إلى الذين التزموا به وساروا على مقتضاه حتى نعموا بفضله وخلدوا ذكرهم فى الآخرين واتباع الصراط المستقيم يعنى التزام أحكامه والعمل بما فيه والاستقامة على أمره ونبذ ما عداه من سبل تؤدى إلى التفرق والشتات.

وفى التعبير عن سبيل الله بضمير الواحد والتعبير عما سواه بالجمع إيحاء بأن الحق واحد لا تعدد فيه وأن الباطل ذو صور شتى وأنحاء متعددة وهى تؤدى حتما إلى الفرقة والسوء والضعف والضياع.

قال ابن عباس فى قوله تعالى: «ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله.

وقال الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما» وخط عن يمينه وشماله.

ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعن جنبتى الصراط

سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يأيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط: الإسلام والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم»

وختمت الآية بقوله تعالى «ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» أى رجاء أن تكونوا على خشية من الله ومراقبة له وخوف منه فلا تتفرق بكم الأهواء والسبل وإنما تلزمكم بسبيل الله وصراطه المستقيم والتقوى هنا مناسبة لهذه المعانى لأنها مناط الاعتقاد والعمل وهى التى تفىء بالقلوب إلى سبيل الله وصراطه المستقيم.